﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمّد ﷺ: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إقامة الدّليل على وجود صفة البُخل في طلب القليل

لمّا أخبر النّظمُ الجليل في الآية السّابقة بأنّهم سيبخلون لو سألهم إنفاقَ جميعِ أموالِهم؛ أتبعَهُ بتأكيد ذلك المعنى في هذه الآية، وأشار إلى دليله بأنّ منهم مَن يبخل بما سألهم إيّاه، وهو جُزء يسير من أموالهم، فالآيةُ تأكيد وتقريرٌ لما سلف[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾: (غني، غنى) أصلٌ يدلّ على الكفاية[2]، والغنيّ: ذو الوَفرة، والغَناءُ: الاستغناء والكفاية، ورجلٌ مُغْنٍ، أي: مُجزئ. والغانيةُ: الشّابةُ المُتَزَوِّجة غَنيَت بزَوْجها، وغَنيَت بجمالها عن الزّينة[3]، والغُنْيَةُ: اسْمٌ من الاسْتِغْناءِ عن الشَّيْءِ[4]. والغِنى يكون مُطلقًا، وهو عدم الحاجةِ بالكليَّة، وليس ذلك إلاَ لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾ [لقمان: 26]. ويكون الغنى باعتبار قلَّة الحاجات، وهو المُشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضّحى: 8][5]. والمُراد به في الآية الكريمة: "المُتَنزِّهُ عن الحاجة إلى أموالكم"[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 268، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(3) الخليل، العين: (غني).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (غني).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (غنى).
(6) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 81.

2) ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾: (بدل) أصلٌ يدلّ على قيام الشّيء مقامَ الشّيءِ الذّاهب؛ يقال: هذا بدلُ الشّيء وبديلُه[1]. والبَدَلُ: خَلَفٌ من الشّيء، واستبْدَلْتُ ثوبًا مكانَ ثَوبٍ، وأخًا مكانَ أخٍ، ونحوُ ذلكَ المُبادَلةُ[2]. يقال: أبدَلْتُ الخاتم بالحلْقَة: إذا نَحَّيْتَ هذا وجعلت هذا مكانَه، وبَدَّلْتُ الخاتمَ بالحَلَقة[3]، والتّبديل قد يقال للتّغيير، وإن لم يأت ببدله، قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: 16]. وقولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ المُراد به في الآية الكريمة: "يُقِم مقامَكم قومًا آخَرين"[4].

3) ﴿أَمْثَٰلَكُم﴾: (مثل) أصلٌ يدلّ على مناظرة الشّيءِ للشّيء[5]. والمِثلُ: شِبْهُ الشّيءِ في المِثال والقَدْر ونحوِه، حتّى في المعنى. ويقال: ما لهذا مَثيلٌ. والمِثالُ: ما جُعِلَ مِقدارًا لغيره[6]. والمَثَل والمَثيل، كالشِّبْه والشَّبَه والشّبيه لفظًا ومعنًى، والجمع: أمثال[7]. والمِثل يقال على وجهين؛ أحدهما: بمعنى المِثْل، نحو: شِبْهٍ وشَبَهٍ. والثّاني: عبارةٌ عن المشابهة لغيره في معنًى من المعاني[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّنفير من عواقب البُخل بالدّعوة إلى الإنفاق

يخاطب الله عبادَه المؤمنين بقوله: ها أنتم تُدْعَون إلى النّفقة في جهاد أعداء الله ونُصْرة دينِه، فمنكم مَن يَبْخَلُ بالنّفقة في سبيل الله، ومَن يَبْخَلْ فإنّما يبخلُ عن نفسه، فهو الذي يخسر أجرَ الإنفاق في سبيل الله، فإنّ الله تعالى هو الغنيُّ عن عباده، وأنتم الفقراء المحتاجون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(2) الخليل، العين: (بدل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بدل).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 125.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(6) الخليل، العين: (مثل).
(7) الفيروزابادّي، بصائر ذوي التّمييز: (مثل).
(8) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (مثل).

إليه، وإنّما حَضَّكُم على النّفقة في سبيله، لتنالوا بذلك الأجرَ والثّوابَ، وإنّكم إن أعرضتُم عن الإيمان بالله وامتثالِ أمره، فإنّه يستبدلُكم ويأتِ بقوم آخَرين، ثمّ لا يكونوا أمثالَكم في التّولي عن أمر الله، بل يطيعونَه ويطيعونَ رسولَه، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الجملةِ عمّا قبلَها:

فُصِلَت جملةُ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَها لأنّها مستأنَفَةٌ[2]، سيقت لتأكيد مضمونِ الكلام السّابق وتقريرِه، والمعنى: ها أنتم أيّها المؤمنون تُدْعَون إلى النّفقة، فيَبخلُ بعضُكم[3]، "والدّليل على ذلك أنّ الله لو طلب منكم أموالَكم وأحْفاكُم بسؤالها، فإنّكم تَضنّونَ - بفتح الضاد وكسرها - بها في الوجه الذي فيه مصلحتُكم الدّينيّة والدّنيويّة، قال تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾"[4]. فهي مُساقَةٌ لتأكيدِ المعنى بالدّليل.

البُخلُ صفةٌ فطريّةٌ في النّاس إلّا مَن رحم ربي

دلالة التّعبير بـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

افتتح النّظمُ الجليل الآيةَ بـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بحشد مُؤثّراتٍ لُغَويّةٍ تجعل المُخاطَب في أعلى درجات الانتباه؛ فافتتحه بـ (ها) التّنبيه ليستجلبَ سماعَ المخاطَبِ لما يُلْقَى إليه، فيستمعَ له بحضورٍ وتفهّم[5]. وجيء بضمير المخاطَبِ (أنتم) لتَعيين المرادِ بالتّنبيه ومتعلّقِ الحُكم، وجيء بـ (ها) الثّانية في اسم الإشارة لتأكيد التّنبيه للمخاطَبين، أي: أنتم أيّها المخاطبون[6].

جَذْبُ انتباهِ المخاطَبِ لسماعِ ما يُلْقَى إليه

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 78، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 510.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 240.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 78.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 790.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 212.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 137، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 102.

دلالة التّعبير باسم الإشارة مع (ها) التّنبيه:

الحقائق التي تُنكرُها النّفسُ تقتضي تأكيدَ التّنبيهِ عليها

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الإشارة مع حرف التّنبيه في قوله جلّ شأنه: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (ها أنتم أولاء)؛ فإنّ الأكثر في مثل هذا التّركيب أن يأتي بدون (ها) اكتفاءً بـ (ها) الأولى الدّاخلةِ على ضمير المخاطَب، فجاء بها هنا للتّأكيد والتّنبيه[1]. فمضمونُ الخطابِ يتضمّن مفارقةً يجب الانتباهُ إليها، فإنّه إذ سألَكمُ القليلَ فَبَخِلتُم به، فماذا لو كان قد سألكم عمومَ المال؟ وفي التّعبير باسم الإشارة استحضارٌ للمُخاطَبين في ذِهْن السّامع، ومحاولةُ التّخلّصِ من أمر البُخل الذي يكون علامةً على البخيل بين النّاس.

سرّ فَصْلِ جملة ﴿تُدْعَوْنَ﴾:

فُصِلَت جملةُ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ عمّا قبلها في قوله جلّ شأنه: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها جملةٌ استئنافيّة سيقت لتأكيد ما سبق وتقريره، لاتّحاد مُحَصِّلٍ للمعنى فيهما؛ فإنّ دعوتَهم للإنفاق هو سؤالُ الأموال منهم[2].

سرّ التّعبيرِ بقوله: ﴿تُدْعَوْنَ﴾:

الترغيب في الإنفاق على الجهاد في سبيل الله هو عينُ الدّعوة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿تُدْعَوْنَ﴾ دون (تؤمرون)؛ لِما تحمله الدّعوةُ من التّرغيب في الإنفاق، ولمّا كان المَقامُ في الإنفاق على الجهاد في سبيل الله هو عينُ الدّعوة؛ جاء التّعبير بقوله: ﴿تُدْعَوْنَ﴾. وفيه مخاطبةٌ للنّفس بما تُحِب؛ بخلاف الأمر؛ فإنّها تأنفُ منه؛ يُؤَكِّد ذلك أنّ الفعل جاء مبنيًّا للمعلوم، وجاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿تُدْعَوْنَ﴾ للدّلالة على تَجدُّدِ هذه الدّعوة للإنفاق؛ سواء كان في أمر الجهاد أو في حاجة الفقراء والمساكين.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 212، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 137.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 80.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِتُنفِقُواْ﴾:

الغاية من الدّعوة حَثُّ المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها دالّةٌ على التّعليل[1]، فالغايةُ من تلك الدّعوة الحَثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى.

التّعبير بالنّفقة مادّةً وصيغةً:

بذلُ المالِ على حُبّه شعارُ أهلِ الإيمان

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالنّفقة في قوله جلّ شأنه: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ الإنفاق يدلّ على انقطاع شيء وذهابه، والنّفقةُ سُمّيت بذلك لأنّها تمضي لوجهها[2]. فالتّعبيرُ يدلّ على ذهاب المال لما أُريد له، وجاء التّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على وجوب دوام الإنفاق واستمرارِه، والتّأكيدِ على ثبوت وصْف الإيمان.

سرّ حذفِ المفعول به:

حذفُ المعلومِ من السّياق إيجازٌ بليغٌ

حَذَفَ النّظمُ الجليل المفعولَ به لفعل النّفقة في قوله جلّ شأنه: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فلم يَقُلْ: (لتنفقوا بعضَ أموالكم)؛ لظُهور المعنى من السّياق، إذِ الحديثُ يجري عن إنفاق الأموال، وطلبًا للإيجاز بالاعتماد على وروده سابقًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾.

دلالة التّعبير بالظَّرْفيّة:

سبيلُ الله تعالى هو الظّرفُ الذي تُنْفَقُ فيه الأموالُ

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهي دالّةٌ على الظّرفية، فسبيلُ الله تعالى هو الظّرفُ الذي تُنْفَقُ فيه الأموالُ. وفي التّعبير بالظّرفيّة إشارةٌ إلى توسيع دائرة الإنفاق في كلّ جوانب ما يَحْتَمِلُه التّعبير ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، سواء كان في أمر الجهاد، أو في أمر الاحتياج للفقراء والمساكين، ونحو ذلك.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).

سِرُّ إيثار السّبيل ودلالةُ إضافتِه لاسم الجلالة:

سِمةُ اليُسرِ والسُّهولةِ والصّلاح عنوانٌ لكلِّ سبيلٍ

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالسّبيل في قوله جلّ شأنه: ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّه طريق واضح، صالحٌ للنّاس، فقد نَهَجَهُ الله تعالى لهم، وهو المَلِك الأعظم[1]، فإضافتُه إلى الاسم الجليل تزكيةٌ وتشريف له، فسبيلُ الله تعالى ينبغي لكلّ ذي لُبٍّ سلوكُه، فهو السّبيلُ الذي يصلح أن يُتّبع. كما أنّه فيه زيادةٌ في التّشويق والحَثّ على إنفاقهم أموالَهم في سبيل نُصْرة الحقّ.

دفعُ توهُّمِ التّعارض بين قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾، وبين قوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

مَن يقرأ قولَ الله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ فيما سبق، يجد أنّه ينفي سؤالَ الأموالِ، ومَن يقرأ قوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجد أنّها تدلّ على السّؤال. وأُجيبَ على ذلك: يجوز أن يكون المعنى: تدعون لتنفقوا في سبيل الله لتدفعوا أعداءَكم عنكم، وليس ذلك لينتفع به الله تعالى؛ لأنّه الغنيُّ وأنتم الفقراء. ويجوز أن يُحمَل لفظُ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ على معنى دعوة التّرغيب؛ فتكون الآية تمهيدًا للآيات المقتضية إيجابَ الإنفاق في المستقبل؛ مثل: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التّوبة: 41]، وعلى ذلك فلا يُتوهَّم التّعارض بينهما[2].

دلالة التّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَمِنكُم﴾:

تفصيل حالِ النّاس في أمر الإنفاق

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ وهي هنا للتّفريع[3]، فلمّا ذكر الدّعوةَ إلى الإنفاق أتبعَهُ بتفصيل شأنهم معها[4]، وتفصيلُ حالِهم إنّما يترتّب على ذِكر ما سبق من أمر الدّعوة إلى الإنفاق.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 269.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 136.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 119.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 269.

دلالة التّعبير بالجارّ والمجرور (منكم):

البُخل ليس على العموم المطلق، بل هو موجودٌ لدى البعض دون البعض

دلّ التّعبيرُ بالجارّ والمجرور (منكم) على أنّ أمر البُخل موجودٌ لدى البعض دونَ البعض، وليس على العموم المطلق؛ لوجود من يوصفون بالكرم، ولذلك يكون تقديرُ الكلام: فمنكم مَن يبخل، ومنكم من يَجود، وهذا من إنصاف الأحكامِ في القرآن.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول ﴿مَّن﴾:

البُخل صفةٌ ظاهرة في عموم النّاس

عبّر النّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿مَّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ دون (الذي)؛ لدلالته على العموم، فليس المرادُ التّعريفَ بالذين يبخلون وإبرازَهُم، بل إظهار أنّ بعضَهم كذلك. فالحكمُ صالحٌ أن يقع على كلّ أحدٍ؛ لأنّه حُكْم عامٌّ لا يختصّ بأحد دون أحد. كما أنّ في الإعراض عن تشخيص مَن يتّصف بتلك الصّفة المذمومة؛ مثالًا مِنْ دَأْبِ القرآنُ على تقديم السّتر والاهتمامِ بالموعظة دون التّشخيص.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾:

ضررُ الشّح والبُخل عائدٌ على البخيل نفسِه

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ بالواو الاستئنافيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؛ لأنها مستأنَفَةٌ[1]، سيقت لتقرير أنّ ضَررَ البُخل إنّما يعود على البخيل نفسه، فإنّه يمنع نفسَه الأجرَ والثّوابَ العظيمَ الذي يترتّب على الإنفاق[2].

دلالة التّعبيرِ بأسلوب الشّرط:

ضررُ النّفسِ حاصلٌ ما حصلَ البُخلُ

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؛ للدّلالة على تلازم الضّررِ الذي يقع على النّفس والبُخل الذي يقع من النّفس، وآثَر التّعبيرَ باسم الشّرط (مَن) للدّلالة على عموم الحُكم.

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 120.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 80.

بلاغة أسلوبِ القَصْر في جواب الشّرط:

انتفاءُ المنافع بالبُخل ملازمةٌ للبخيل على وجه الحَصْر

عبّر النّظمُ الجليل عن جواب الشّرط بأسلوب القَصْر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ البُخل متعلّقٌ باقتصار ضررِه على صاحبه، فدلّ على الحصر والتّعليق، فكان الكلامُ في غاية التّأكيد. وإنّما أكّده "لأنّه لا يكاد أحدٌ يُصَدّق أنّ عاقلًا يتجاوز بماله عن نفع نفسه"[1]. والقصر فيه قصرُ قَلْبٍ؛ وذلك لأنّ الذي يبخل ظنّ أنّه ببخله يمنع النّفعَ عن غيره، ولكنّ انتفاء النّفع عاد عليه، فَحَرمَ نفسَه من أجر الإنفاق[2].

سرّ تعدية الفعل ﴿يَبۡخَلُ﴾ بـ ﴿عَن﴾:

البُخل عن النّفس هو الإمساك عن تحقيق المنافع لها

عدّى النّظمُ الجليل الفعلَ ﴿يَبۡخَلُ﴾ بحرف الجَرّ ﴿عَن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾، مع أنّه يتعدّى بالحرفين (على، وعن)، ولكنه عُدّيَ بـ ﴿عَن﴾ التي تُفيد المُجاوزة؛ لأنّ فعل ﴿يَبۡخَلُ﴾ ضُمِّنَ معنى الإمساك[3].

سرّ التّعبير بالبُخل دونَ الشّحّ مع دلالة تكراره:

تقريع الأسماع بأبغض الصّفات تنفيرًا لهم منها

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بالبخل دونَ الشّحّ؛ لوجود فرق بينهما، فالبُخل غالبًا يكون في الجانب المادّيّ المتعلّق بعَرَض الدّنيا، ولذلك يقابَلُ بالجود؛ بخلاف الشّحّ؛ فهو ما ينبعث عن النّفس من الحرص على منع الخير، ولذلك فهو أوسع من أن يبخل الرّجلُ بماله وفضلِ الله عليه؛ فهو يشمل المادّيّ والمعنويّ؛ ولأنّه يتعلّق بمنع الخير من نفسه أو من غيره، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9]؛ ولمّا كان البخل يتعلّق بالجانب المادّيّ أو بأعْراض الدّنيا؛ كان مناسبًا لسياق الآية التي تتكلّم عن الأموال[4]. وكرّر النّظمُ الجليل لفظَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 269.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 137.
(3) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 708.
(4) محمد خضر، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 176.

البُخل في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ وذلك لاستهجانه والتّنفير منه[1]. وفيه تقريعٌ لهم بتَكْرار الصّفة التي هي من أقبح الصّفات لديهم.

دلالة التّعبير بالنّفس وإضافتِها:

الضّرُّ عائدٌ على الباخل لا على غيره

عبّر النّظمُ الجليل بالنّفس في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ الضّرر النّاجمَ من البخل لا يعود إلّا على الباخل نفسِه، فإنّ المريض الذي يبخل على نفسه بأُجرة الطّبيب وثمنِ الدّواء، فهو لا يبخل إلّا على نفسه[2]. وفيه تبكيتٌ وتوبيخ للذين يُمسكون أموالَهم ولا ينفقونها في سبيل الله؛ بأن ضرر ذلك يعود عليهم؛ لأنّ الله غنيٌّ عن عباده، فلا يحتاج إلى أموالهم.

بلاغة حَذْفِ مقابلِ البخيل:

مقصود الخطاب بيانُ خُسران البُخلاء

حَذَف النّظمُ الجليل القِسْمَ الآخَرَ من النّاس، وهم الذين يجودون ويستجيبون لدعوة الإنفاق في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾، فلم يَقُلْ: (ومنكم مَن ينفق ويَجود)؛ وذلك لأنّ المُرادَ من السّياق ذَمُّ مَن لا يُنفِقون، والاستدلالُ على ما سبق من ذِكْر البُخل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾[3].

دلالة التّعبير بالواو في صدر الجملة:

الغنيّ عن العباد لا يسألهم أموالَهم

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾، وهي هنا استئنافيّة[4]، والجملةُ مُساقَةٌ تذييلًا لتقرير أنّ الله تعالى غنيٌّ مطلقًا، ومن كان كذلك فإنّه لا يسأل النّاس مالًا لنفسه، والمُخاطَبون فقراءُ محتاجون إليه[5]. كما أنّ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 220.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 472.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 35.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 120.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.

الجملة ترفع وهَمَ من يَظُنّ أنّ بُخْلَ النّاسِ يَضرُّ الله تعالى، فَرَدّ على ذلك الوَهَمِ بتقرير أنّه غنيٌّ، لا يَحوجُه شيءٌ من عباده[1].

دلالة التّعبير باسم الجلالة:

تعظيمُ حَقِّ الأُلوهيّة للمَلِك الأعظم المتّصفِ بجميع صفات الكمال والجلال

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ دون لفظ الرّبّ؛ فلم يقل: (وربّك الغنيّ) كما ورد في بعض المواضع؛ للدّلالة على أنّه المَلِكُ الأعظم المتّصف بجميع صفات الكمال والجلال[2]، فلا يحتاج نفقةً من عباده المُفْتَقِرين إليه. وفي التّعبير بلفظ الجلالة تعظيمٌ لحقّ الأُلوهيّة الذي يلزم منه وجودُ العبوديّة الحَقّة من الإنسان لربّه.

بلاغةُ القَصْر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾:

الغِنى المُطلق لا يكون إلّا لله

تَظهر بلاغة القَصْر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾، وذلك بتعريف طَرَفَي الجملةِ؛ للدّلالة على حَصْر الغَناءِ به تعالى، فالله تعالى الغَنيّ لا أحدَ غيرُه، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوف قَصْرًا ادّعائيًّا؛ لأنّه تعالى يجعل بعضَ عبادِه مستغنيًا عن بعضٍ غَناءً جُزئيًّا، والتعّريف باللّام لتعريف الجِنس، فجِنسُ الغَناء المُطلقِ له تعالى مقصورٌ عليه، وفي هذا تعبيرٌ عن كمال غِناه ﷻ[3].

دلالة التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾:

غنى الغنيّ مُؤكَّدٌ بفقر الخَلْقِ إليه

عَطَفَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾[4]، فكِلا الجُملتَين سيقتا للتّذييل؛ تقريرًا لمعنى الآية. فلمّا قَرَّر أنّ الله تعالى هو الغنيّ أتبعَهُ بتقرير فقرِهم، وحَصَرَ صفةَ الفقرِ بهم، لتأكيد غناه عنهم؛ أي: وأنتم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 269.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 270.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 120.

"المقْصورون على الفقر والاحتياج الذّاتيّ إلى ما عنده سبحانه من أنواع الإنعام والإحسان"[1].

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾:

الـفـقـر صـفـةٌ خاصّة بالنّاس

عبّر النّظمُ الجليل بالجملة الاسميّة بتعريف طرفيها في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾؛ للدّلالة على حصر صفة الفقر في العباد، أي: أنتم الفقراء خاصّة[2]. وهو قَصْرُ صفة على موصوف، والتّعريفُ فيه تعريفُ الجنس؛ للإيذان بكمال الوصف فيه[3]، كأنّهم لكثرة افتقارِهم وشِدّة احتياجِهم هم الفقراء دونَ غيرِهم.

دلالة التّعبير بالفقر:

الاحتياجُ صفةٌ ذاتيّةٌ في البشر

عبّر النّظم الجليل بالفقر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾؛ للدّلالة على الاحتياج، أي: أنتُم الفقراء المحتاجون إلى ما عندَه من الخير والبَركة والرّحمة[4]، فالعبادُ بهم حاجةٌ ذاتيّة لما عندَه سبحانه من الإنعام والإحسان[5].

دلالة التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾:

عـدمُ الإيـمـان والتّقوى سببٌ للاستبدال

عَطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾، على الجملة الشّرطيّة[6] وهي قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾، أي: إن تتولّوا عن الإيمان والتّقوى، فإنّه يَسْتَبْدِلُ قومًا آخَرينَ بِكُم أطوعَ للّه منكم[7].

دلالة التّعبير بـ (إنْ) الشّرطيّة:

تـولّي المؤمنين غيرُ واقعٍ إلّا على سبيل الافتراض

عبّر النّظمُ الجليل بأداة الشّرطِ (إنْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 333.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 270.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 274.
(5) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 333.
(6) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 472.
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 81، وينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.

﴿تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ لأنّ السّياق في الافتراض، وأنّه ليس متوقَّعًا حدوثُه من أهل الإيمان.

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

جاء التّعبير بالجملة الشّرطيّة: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ للدّلالة على تأكيد وقوع الجواب عند وقوع الشّرط، فالاستبدالُ حتميّ عند التّولي والإعراض؛ فبينَ التّولّي والاستبدال تلازمٌ ظاهِر.

تأكيدُ وقوعِ الجوابِ عند وقوعِ الشّرطِ، فالاستبدالُ حتميٌّ عند التَّولّي والإعراض

دلالة التّعبير بالتّولّي مادّةً وصيغةً:

عبّر النّظمُ الجليل بالتّولّي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ دونَ الإعراض؛ لأنّه أعمُّ، فقد يكون بالجِسْم، وقد يكون بترك الإصغاء أو الائتمار، بخلاف الإعراض؛ فإنّه يكون بالوجه، يقال: أعرض، أي: أظهر عَرْضَه، أي: ناحيتَه، فإذا قيل: أعرض عنّي؛ فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَه، وعلى هذا فالتّولّي أعمّ من الإعراض؛ لذلك آثَر التّعبيرَ به لدّلالته على الإعراض وتركِ الطّاعة[1]. وجاء التّعبير بصيغة (التّفعّل) للدّلالة على تكلّف التّولّي والاجتهاد فيه. والتّولّي يكون مُتكلَّفًا؛ لأنّه مخالفٌ للفطرة، فهو إجبارٌ للنّفس للسّير ضِدّ ما فطرها الله تعالى عليه[2].

مخالفة الفطرة بترك طاعةِ الله تعالى لا تقع إلّا بِكُلْفَةٍ

دلالة التّعبير بالاستبدال مادّةً وصيغةً:

عبّر النّظمُ الجليل بالاستبدال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ لدلالته على جَعْل شيءٍ مكانَ آخَر[3]، فإنّه تعالى سيأتي بقوم يُطيعون الله تعالى ولا يعصونَهُ، فيكونون أطوعَ من المُخاطَبين[4]. وجاء التّعبير بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على

شدّةُ المُبالغة في التّهديد للعصاة، باستِبْدالِ قومٍ آخَرينَ بهم

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 270.
(3) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 17.

وقوع ذلك كلّما وقعَ التّولّي، فهو وقوعٌ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ، والسّين والتّاءُ فيه للدّلالة على المبالغة[1].

دلالة التّعبير بلفظ القومِ وتنكيره:

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (القوم) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ للدّلالة على أنّهم ذَوو قوّةٍ وكفايةٍ وقُدرةٍ على ما يطلب منهم فعلُه[2]. فالتّعبير بالقوم هنا فيه ثناءٌ ومدح لهم، وتوبيخٌ وتَبْكيتٌ للعُصاة الذين أعرضوا عن منهج الله.

الوصفُ بالقوم مُنَكَّرًا؛ فيه ثناءٌ ومدحٌ لهم، وأنّهم ذَوو قوّةٍ وكفايةٍ لما يُطلب منهم

دلالة التّعبير بـ (غير) مع دلالة إضافتِها إلى ضمير المخاطَب:

عبّر النّظمُ الجليل بـ (غير) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ للدّلالة على أنّ القوم الذين سيأتي بهم الله مخالفون لصفة المخاطَبين ممّن يبخل منهم، فهم راغبون في الإنفاق في سبيل الله تعالى[3]. وإضافة (غير) لا تُكْسِبه تعريفًا لأنّه موغِلٌ في الإبهام؛ لأنّ ﴿غَيْرَكُمْ﴾ تشمل كلَّ النّاسِ من الأقوام الآخَرين، فالمُراد هو المخالفة في الصّفة التي ذُكِرت في السّياق، وهي التّولّي، فالمغايرةُ وقعت في صفة التّولّي التي حُذِّرَ منها المُخاطَبون[4].

القومُ الذين سيأتي الله بهم مخالفون لصفة المُخاطَبين ممّن يبخل منهم

سرّ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾:

عطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ على جملة الاستبدال في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[5]؛ لأنّ كلتا الجُملتَين واقعتان في حيّز الشّرط، وقد جاء العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدّلالة على أولئك القومِ الذين سيكونون في غاية البُعْد عن مشابهتهم، فلا يقع منهم البُخل ولا التّولّي. ويجوز أن

الدّلالة على أنّ هؤلاء القومَ في غاية البُعْد عن البُخل والتّولّي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 138.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 270.
(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 285.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 271.
(5) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 708.

تكون "للتّرتيب الرُّتبيِّ؛ لإفادة الاهتمام بصفة الثّبات على الإيمان وعُلوّها على مُجَرّد الإيمان، أي: ولا يكونوا أمثالكم في التّولّي"[1].

دلالةُ التّعبير بنَفْي فعلِ الكَوْنِ:

المبالغة في نفي التّشابهِ بين السّابقين واللّاحقين نفيًا وجوديًّا

عبّر النّظم الجليل بنفي فعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾؛ للدّلالة على نفي التّشابهِ نفيًا وجوديًّا، وهذا مبالغةٌ في النّفي، فلم يقل: (قومًا غيركم لا يشبهونكم)؛ لأنّ نفي الكونِ على صفة المشابهة أبلغُ من نفي المشابهة مباشرة.

دلالة التّعبير بالأمثال مادّةً وصيغةً:

كلّ فَرْدٍ من القوم مغايرٌ لكلّ واحد من الذين يبخلون

عبّر النّظمُ الجليل بالأمثال في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾؛ للدّلالة على نفي صفة المماثلة، والمقصودُ أن ينفيَ وجهَ الشّبهِ، أي: لا يكونوا مثلَهم في التّولّي عن الإنفاق[2]. وجاء التّعبير بصيغة الجمع ليكون شاملًا لكلّ فردٍ منهم.

علاقة ختام السّورةِ بمطلَعِها:

التّناسبُ والارتباطُ الواضح بين ختام السّورة وصَدرِها

النّاظر في ختام سورة محمّد ﷺ يجد ارتباطًا واضحًا بين الختام وصَدرِ السّورة؛ حيثُ بدأت السّورةُ بالحديث عن الكافرين وصَدّهم عن سبيل الله؛ ثمّ جاء ختامُ السّورةِ في نفس السّياق؛ حيثُ تحدّثَ عن الذين كفروا وصَدّوا عن سبيل الله، وشاقّوا الرّسولَ. وفي أوّل السّورة تحدّث عن بُطلان أعمالهم وحُبوطِها، وفي ختام السّورة تَحَدَّث عن حُبوط أعمالهم بقوله: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وهكذا من أوجه التّشابه بين آخر السّورة وصَدرِها؛ لأنّ موضوع السّورة يدور حولَ الكفرِ والصّدِّ عن سبيل الله ونتائجِه. وأيضًا: ممّا يُذْكَر في علاقة ختام السّورة بأوّلِها: أنّ موضوعَ الجهادِ في سبيل الله ذُكِر في أوّلها وصَدّ الكفّار عنه، وختامُ السّورةِ يدعو إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 139.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 36.

الإنفاق في سبيل الله في كلِّ وُجوه الخير، وعلى رأسها الجهادُ، إلى غير ذلك من الوجوه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التولي والإعراض:

التّولّي إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا، فإنّه يقتضي معنى الإعراض وتَرك القُرْبِ من الشّيء، وهو قد يكون بالجِسْم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار[1]، فيدلّ على ترك الطّاعة. أمّا الإعراضُ: فأصلُه من العَرْض الذي يخالف الطّوْل. وأعرضتُ عن فُلان، وأعرضتُ عن هذا الأمر، وأعرض بوجهه؛ لأنّه إذا كان كذا، ولّاهُ عَرْضَه[2]، وأعْرَضَ عنّي، معناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ[3]. فالإعراضُ: صَدٌّ وعدمُ قَبولٍ. أمّا التّولّي: فَرَفْضٌ وتَرْكٌ للطّاعة وبُعْدٌ عنه. وقد آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالتّولّي لأنّ المُخاطَبين هم في حِزْب الإيمان، فكان تركُهم الطّاعةَ مُعبِّرًا عن بُعْدِهم بعد قُرْبِهم.

التّـولّي ابتعادٌ عن المَدعوّ إليه، والإعــراض صَدٌّ ورفضٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرض).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"